الحكيم وأنا

لم أتردد لحظة، وذهبت إليه مصممة على تسجيل حديثي معه، احترت فقط فيما سوف ابتاعه له كهدية رمزية تذكره بلقائي، وتحفزه للتواصل معي، فقررت شراء بعض الوردات متنوعة الألوان، لملمها البائع في صحبة رقيقة، وطرقت بابه وأنا سعيدة، يدق قلبي.

فتح بابه: أهلا أهلا..

ولَمَّا لمح باقة الورد، قال:

" ياستي متشكرين، جميلة قوي، حطيها من فضلك في الزهرية الزرقا دى.." وجلس.

وضعتُ الورد كما أشار علي، وجلست قبالته، قلت:

- " مش حاعطلك كتير يافنان.."

بادرنى بالإجابة مازحا:

- " لأ أنا مفضيلك نفسي، أما أشوف أخرتها معاك."

ضحكتُ، فعلّق: " ضحكتك اسكندراني زيك، شبه البحر."

أومأتُ برأسي أشكره.

قال وهو يعشّق كفيه معا:

" ها عايزه تسألي في إيه؟ "

– في رواية"راقصة المعبد"، وفي المقدمة تحديدا، كتبتَ إهداءً إلى الأسطى حميدة، وقلت أنها أول من علمك الفن.. احكِ لى عن تلك الـ "حميدة" من فضلك، وعلى فكرة، في صفحة ٦٦ قلتَ إن الكون كله رقص، فاكر طبعا..

– آه طبعا..كنت قاعد بين جميلتين وشيخ.. ماتفهميش ليه، والقعدة طولت ياما، ونسيت آكل، وبدأت عصافير بطني تصوصو قاطعته:

– أيوه.. بس استمتاعك بالنظر للجمال، جعلك تغرق عصافيرك بعصارة معدتك، ياحرام..

ابتسم وقال

– انتى عايزه ايه يابنوتة؟

ضحكتُ .. وقلت: حتى لما اتكلمت عن المجموعة الشمسية قلت أن دورانها الأبدي ليس إلا رقصة باليه.. الله عليك بجد يعنى

باختصار عايزاك تعترف بحبك للرقص.. رقص الأسطى حميدة، أو رقص الباليه..

وتابعت وسط اندهاشةٍ مرتاحة ملأت ملامحه:

- بصراحة عايزه أرقص معاك..

تقدمتُ نحوه، وأمسكته من ذراعيه، وبدأتْ خطواتي في الانتظام، تحرر هو من خجله تدريجيا، ثم بدأ يحاوط خصري بكفين متوترتين.. قال ضاحكا: بس انتى اطول منى يابنوتة..

وضحك بصوت عالٍ، وكأنه غير مصدق حالته، وتلك التي تراقصه وفي بيته.

خلى بالك"قلت" هتحكى لي عن ناتالي، وعن حمار الحكيم.. قال بعد شرود لبرهة: لو تعرفي إن الرقص هو الحياة، كنتى بقيتى سعيدة، واختفت هالات السواد حول عينك.

قلت: نعم أعرف، وحين يكون الفن حياة، تصبح الحياة فنا. قال: الفن يباعد بينك وبين الوجود أصلا، يحررك، يجعل منك شخصا

مختلفا، أعني مشكلة الوجود إنه يرفض الموت ويستغربه أحيانا كثيرة، رغم أنه حقيقة ثابتة.

قلت: نعم أحيانا ، بعد حدث مؤلم يتسع القلب، وتتزايد قدرته على الإحتواء.

قال: نعم .. من الألم نستكشف الكثير، عبر تجاربنا القاسية.

توقفنا عن الرقص، شكرني ، وجلسنا..

قال: القدرة على الاكتشاف أو الكشف، ليست شيئا مباحا للجميع ياصغيرتي، أو مجانيا لكل البشر ، فهناك من لم يتعلم من الألم سوى النسيان، فنجده يكرر بواعث ألمه بغباء، لا يستحق منا الشفقة. وأضاف: توجد قوى كثيرة جدا في الانسان، وفي الكون وفي المجتمع..كلهم متواجدين، لا تطغى واحدة على أخرى.. الكون منظّم ومنضبط بدرجة ما، ومع ذلك ينجح في استيعاب الفوضى.

قلت: نعود للموسيقى.

وقبل أن أسأله قال: الموسيقى هي أدب الأذن، وأعرف أن صوتك جميل، وأذنك مؤدبة، العصفورة فتنت لي عليكي.

ضحكتُ من مباغتته لي بتلك الجملة، وطلب منى أن أختار غنوة لأغنيها.

قال: تستغربي من كلماتي.. الفنون لابد أن تكون مسمدة، ومزروعة حولنا في كل مكان.

قلت: تخيل منذ مدة ليست بالقصيرة، أحسُّ أني مثقلة- وتتجعد كلماتي أمامي، ويطلُ هذياني أحيانا، عله بصخبه يساعدنى على الفهم .

قال: كلنا أحيانا نكون على مشارف الغرق.. نعم، وكأن على رؤسنا حطَّ الطير.

قلت: "احك لي عن موضوع الحمار، وبلاش زوغان "

قال: وبعدها ستغني ؟ ماشي.. الغناء فرح الروح، ولعلمك من لم يستطع الغناء يقف في ظلال مقبرته.

هتفتُ قائلة: كلماتك وفلسفتك تشرع كوة القلب.

قال: الناس الجيدون يبحثون عن فتات صدق، بين حنايا الكلمات كومضة البرق، وكما قال جلال الدين الرومي ؛ البرق وإن بدا نورا قد يخطف البصر.

قلت : ماذا عن العشق أستاذي؟ حدثني عنه، كي ألمح بصيص نور، و قد أصادفه يوما.. أعشق العشق لذاته.. ارتشف رغباتي الكثيرات العادلة في صمت وقلة حيلة، و أحيانا أراها آثاما بيضاء.. كيف هو سيدى؟

قال: لن أخبرك، عليك البحث عنه، وسوف تجدينه بنفسك. أما عن حماري .. كنت يوما في طريقي إلى صالون الحلاقة بتاع صاحبي، الخواجة "يني" ، وقبل ما ألف عشان أدخل المحل، سمعت شخصا، ينادي بصوت عالي"الجحش ب خمسين صاغ"..أخذ يكرر كلامه مرات، وأنا واقف مبتسم في وسط اللمه، ماتفهميش الراجل فهم لغة وشى إزاي، ترك كل الناس ، ووسع لنفسه من وسط الزحمة، وجاء لحدى يسلمني مقود الحمار، مسكته مدهوشا وقلت: امسك ياعم إنت، أروح بيه فين. ردَّ: حتاخده، شكلك طيب، وحتحبه، وتعطف عليه. أُجبرني، الله يجبرك يافندي... وقررت أن يتغلب إصراري على إصراره، فألقيت بالمقود، ومشيت مدعيا تبرمي من الثمن، وبعد عدة خطوات قلت له: تلاتين ساغ يبقى كويس ودخلت

للخواجة " يني" الحلاق، ولما خلصت حلاقة، وتقريبا يادوب بأمسك عصاي، وحاخرج من المحل لقيت الراجل بتاع الجحش كان فتش المكان كله بيدور عليا أو على الثلاتين صاغ.. لغاية ما لمحني و عرف مكاني، لقيته واقف لي على الباب يقهقه، مد إيده وقالي"حلال عليك ياأفندي هات التلاتين صاغ، احترت وبقيت في نصف هدومي، لقيتني في صراع نفسي داخلي.. صراع نفسي وقتي، بين أطلع راجل كداب والبياع حالته تقطع القلب وماصدق ياعيني يلقى زبون، وبين حاروح فين بالجحش.. لكن ثواني مرت، ولقيتني بأطلع الفلوس من جيبي، ومسكت الجحش من حبله، ومشيت.. وحمدت ربنا إن الليل كان وصل أي والله بس كنت عرقي مرقي.

سألته:أخذته على فين؟

أجاب: كلمت واحد من أصدقائي، جاني بس بعد أكتر من ساعتين وأنا طول الوقت ده محتاس مش عارف أعمل للجحش إيه، كان بينهق قلت يبقى جعان، جبت له لبن، و أدلق اللبن قدام الجحش

يبص لي وينهق، مع أني مابأشربش اللبن ، وطلبته له مخصوص برضو، ماشربش.

لغايه ما صديقي الله يمسيه بكل خير وصل وأخده معاه للعزبه ملكه بس خلي بالك المؤلفين والكتاب غالبا بيكونوا على باب الله، ماديا أقصد، وحياتك قدام الهدية دي عزمني ييجي خمسين مرة على حس الجحش، ومع كل وجبة أدعي للجحش وصاحبه في سري..

كنت أرقب ملامحه وانصت لضحكاته وبساطته وصدق مشاعره وكلماته لكنى وجدته يقرب معصمه من عينه، يرى الساعة قلت :

"لم تقل شيئا عن الرقص"ولا عن حميدة خلي بالك

قال: بس رقصت معاك وده كفايه.. غنى انت بقى الدور عليك اخترتُ إحدى أغنيات سيد درويش، وغنيتها ، ثم ضحكتُ لطريقته المحببة المراوغة في الإجابه عما لا يريد الخوض فيه.